

معتقدات وطقوس الماء في المخيال الشعبي الجزائري

Title Beliefs and rituals of water in the Algerian popular imagination

مريم لمام *

مركز البحث في الأنثروبولوجيا
الاجتماعية والثقافية CRASC
(وهران- الجزائر)

limam_mimi@yahoo.fr

ملخص:	معلومات المقال
حاولنا في هذا المقال البحث عن رمزية الماء ودلالته في المخيال الشعبي الجزائري، ولهذا الغرض قمنا أولاً بتقديم البعض من المعتقدات الشعبية والممارسات التي تمكننا من فهم أعمق للعلاقة التي تجمع بين الماء والإنسان. فإلى جانب كونه (أي الماء) سبباً للحياة والوجود، فقد بنيت حوله أفكار ومعتقدات تجمع بين التقديس والخوارق والخوف، فنتجت بهذا طقوساً حوله لتجاوز هذه المخاوف. لذا قدّمنا، في مرحلة ثانية، نموذجاً لهذه الطقوس، طقس (غنجة)، وكيفية القيام به والأسباب التي جعلته يختلف. وفي الأخير، بيّنا أهمية المعتقدات الشعبية والطقوس وتأثيرها على ثقافة المجتمعات المحلية كنتيجة لأفكار قديمة استمر وجودها عبر المخيال الجمعي.	تاريخ الإرسال: 2023/02./02 تاريخ القبول: 2024/01/07 الكلمات المفتاحية: ✓ الماء، المعتقدات الشعبية ✓ المخيال، طقس ✓ غنجة
Abstract :	Article info
<i>In this article, we tried to search for the symbolism of water and its significance in the Algerian popular imagination, and for this purpose, we first presented some of the popular beliefs and practices that enable us to have a deeper understanding of the relationship between water and man. In addition to its being (i.e. water) a reason for life and existence, ideas and beliefs that combine reverence, the supernatural and fear were built around him, so rituals were created around him to overcome these fears. So we presented, in a second stage, an example for this ritual, the (Ghanja) ritual, how to do it and the reasons that made it disappear. Finally, we showed the importance of popular beliefs and rituals and their impact on the culture of local societies as a result of old ideas that continued to exist through the collective imagination.</i>	Received 2023/02./02 Accepted 2024/01/07 Keywords: ✓ water ✓ folk beliefs, rite ✓ imagination, Ghanja

1. مقدمة:

المجتمعات الانسانية مليئة بالممارسات الاجتماعية بأنواعها، كالمعتقدات الشعبية، الأساطير والطقوس باعتبارهم جزءا من الثقافة التي يكتسبها أي فرد بوصفه عضوا بالوسط الجماعي لأهميتها والدور الذي تلعبه فيه. يوجد الكثير من المعتقدات الشعبية والممارسات المتعلقة بالماء (من خلال بعض الأساطير والطقوس) والتي عرفت بعض المناطق الغربية للمجتمع الجزائري منذ القديم وبقيت راسخة في ذهنية الجماعة لتصبح فيما بعد من أشكال التعبير الشعبي. من هنا يمكننا الحديث عن الماء ليس كخاصيته الطبيعية وإنما من حيث الرمزيات والتمثلات التي تشكلت بالمخيل الشعبي.

من هنا جاءت تساؤلاتنا:

ما هي الدلالات والرمزيات للماء بحسب المخيل الشعبي؟ لماذا الماء فيه الكثير من المعتقدات الشعبية؟

المنهجية المعتمدة في جمع المعلومات حول المعتقدات الشعبية المتعلقة بالماء، أيضا حول طقس (غنجة) بالتعرف على معانيها، رمزياتها، عن الأسباب التي دفعت لحدوثها، ثم التعرف على أسباب وظروف اختفاءها من بعض المناطق (بالغرب الجزائري)، فقد وظفت المقابلة التي أجريتها مع بعض الأشخاص (ضواحي مستغانم وتلمسان) تعايشوا مع ظرف (طقس غنجة) أو روايات قيلت لهم عن طريق الجدات أو أحد الأقارب، كما وظفت المقابلة في جمع البعض من المعتقدات الشعبية والممارسات الخاصة بالماء.

لعل الحرمان و ندرة المياه و جذب الأرض هو الذي جعل مختلف المجتمعات يبالغون في تقديس الماء و تقدير الخصب و يرون له رونقا خاصا في هذه البيئة الجرداء، كما قدسوا مواطن الماء القديمة و اعتقدوا فيها أسراراً غامضة و اصفوا عليها من القوى الخفية ما لم يصفوه على غيرها من الأماكن، فالسبب الرئيسي و الأساسي في تقديس الماء عند جميع الشعوب هو أهميته في الحياة و الانتاج فندرة الماء و جذب الأرض هي من زادت و عيهم بأهميته و من ثم تقديسه، و صفة قداسة الماء كانت عند جميع الشعوب وفي أغلب الحضارات فجعلوا له إله البحر، إله الأنهار، إله المطر و أصبحوا يعبدونه تعبيراً منهم عن قداسة الماء (رزايقية فاطمة، 2019، ص 135).

قبل الحديث عن المعتقدات الشعبية والطقوس المتعلقة بالماء سنوضح المقصود بالمعتقدات باختصار فهي تدل على أفكار وممارسات اتجاه موضوع ما (الآلهة، الأرواح، العفاريت، السحر... إلخ) وهي مستمدة من الماضي وتناقلت من جيل لآخر لتصبح عادة مستمرة (بيار بونت 2006، ص 861-862).

إن للماء رمزية بين الأساطير و الأديان منذ العصور القديمة بدلالات ثلاث هي الحياة، الطهارة و البعث المتجدد، الماء هو أصل الخلق فاعتقد الفرس (أن الله بدأ الخليفة بالماء ثم أتبعها بالنار، النبات، السماء ثم خلق الانسان في اليوم الأخير)، كما آمن البابليون (أن بداية الكون كانت بحرا حلوا) واعتبر المصريون القدامي أن (الماء أصل كل شيء إذ أن رع إله الشمس انبثق من أعماق البحار العميقة المحيطة بالعالم، كما كان الهندوس يلقون رماد موتاهم بنهر الغانج لتبعث أرواحهم من جديد لتكون رمزا للخلود و الحياة الجديدة،

بالنصوص التوحيدية المقدسة فيدل الماء على الحياة، الخلق والتجدد، ففي التقليد كان الماء رمزا للخلق إذ في البدء كان العماء، أما بالقرآن الكريم فالماء أصل كل موجود كما ورد بالآية الكريمة (وجعلنا من الماء كل شيء حي) (زهرة ثابت ،2021، ص 310-311).

2. البعض من المعتقدات الشعبية والممارسات حول الماء:

- اعتقاد قديم أن مياه الأنهار تفيض أو تجف محدثة بذلك خطرا يهدد السكان اعتقادا منهم أن إله الأنهار غاضب و عليه وجب تقديم قربانين كالمعتقدات القديمة للفراغة بتقديمهم أجمل فتاة بالمنطقة و رميها بمياه النيل.
- وجود أولياء صالحين بالقرب من البحر، يقال أن البحر تحت سيطرة قوى خارقة فهي تحمي البحر، لهذا يتم زيارة هذه الأضرحة مع تقديم القرابين و الصدقات بنية دفع البلاء ، من أمثلة هذه الأضرحة على حافة شواطئ مستغانم (الكاف لصفير، سداوة بسيدي لخضر، سيدي المجذوب ، سيدي منصور...) من بعض الممارسات لهذا الاعتقاد جمع الماء من كل سبع موجات يتم شربها والاعتقاد بها حيث يعتقدون أن البحر تسكنه أرواح خارقة و الاعتقاد بماء البحر كطهارة من الجن و المس.
- أثناء توديع المسافرين أو أي شخص لقضاء حاجة ما، تقوم الجدّة أو الأم أو أي امرأة من العائلة برمي كوبا من الماء وراء خطوات الشخص المسافر وهذا يحمل دلالات و رمزيات كالتسهيل في قضاء تلك الحاجة، السفر والعودة بسلام وأمان، ابعاد الحسود من طريق ذلك الشخص، ابعاد كل العقبات والصعوبات والعراقيل التي قد تعيق مهمته، وبما أن الماء يتميز بسرعة السيال و الخفة كذلك يعتقد أن تكون قضاء الحوائج بهذه الرمزية.
- شرب ماء زمزم، من المعلوم أن ماء زمزم هو ماء مقدّس بحكم أنه يجلب من الأراضي المقدّسة بمكة المكرمة و عند شربه يلزم الدعاء في كل الأمور التي ينوي الشخص القيام بها مثلا الطلب و الدعاء بالصحة، العمل، تسهيل الزواج، بصلاح الأولاد و جلب الربح ، كذلك بحسب الاعتقادات الشعبية فهو فيه شفاء من كل داء كما يستعمل للتخلص من السحر بحكم أنه ماء مقدّس و مبارك فهو معجزة إلهية.
- الشرب من ماء الزهر (المُقَطَّر من زهر البرتقال) فهو يحمل رمزية تسهيل قضاء الحوائج، ارتبط زهر البرتقال ب(الزهر) الذي يعني الحظ.
- الرش بالماء يوم الاحتفال بعاشوراء، من منطلق أن هناك علاقة وطيدة بين طقس رش الماء و ذكرى نجات نبي الله موسى عليه السلام من بطش فرعون، بمنطقة تمرنة القديمة (بسيدي عمران ولاية الوادي سابقا) هناك ممارسات واعتقادات ساكنة القصر أن هذا اليوم يُفضّل الرش بالماء فهو يحمل معه الخير، البركة والنماء لذا بهذا اليوم يتم الغسل و رش عتبة المنزل، رش كل الممتلكات من حيوانات ونباتات فبحسب اعتقادهم أن كل ما يمسه الماء بهذا اليوم فهو مبارك عند الله ويزيد نموه ويكثر فيه الخير والبركة.

- هناك اعتقاد سائد أن كل المناطق التي فيها بركًا مائية، وكل ماء راكد في أماكن قذرة فهي مناطق يسكنها الجن و الخوارق ولا يجوز مسّها أو تخطيها حتى لا يحدث للشخص مس من طرف الجن بل ينبغي التعوذ مع قراءة آيات قرآنية كوقاية من المس و السحر.
- المياه العذبة والعيون الجارية هو اعتقاد سائد بأنها صافية طبيعيًا ينبغي التبرك والاعتسال وحتى جلبها بقنينة للاحتفاظ بمائها، كما يلزم الدعاء والطلب، أما رمزية الماء هنا فهي توحى للصفاء فهي رابط بين المقدّس، فالماء يرمز للحياة و الخصوبة.
- الاعتسال بماء المطر بحسب المعتقدات الشعبية له الكثير من الفائدة على الانسان فماء المطر مقدّس بحكم أنه خال من الشوائب ومبارك بالأخص عند شربه والاعتسال به فهو يطهّر الجسم من السحر وطارده للأرواح الشريرة والشياطين والجن فيه الكثير من البركة.
- هناك من يستعمل الماء على أنه يرمز (للفأل) عند دخول العروس إلى بيت زوجها هذا لأنه يحمل الكثير من المعتقدات الشعبية منها أن تكون العروس نافعة لزوجها، فوضع الماء أمام عتبة البيت حتى تكون الزوجة (مربوحة) تجلب السعادة للزوج بعمله وحياته، فهو رمزية على أن تكون العروس ولودة فالماء يرمز للخصوبة، نفس الشيء بالنسبة للعريس فقبل دخوله للبيت يوضع أمامه إناء به ماء يضربه برجله حتى يتدفق، هذا رمز للخير و البركة والنماء والسعادة الزوجية واستمرار الحياة. هذا ولأن الماء رمز للطهارة في الاسلام ونظرا لقدسيته فهو ليس للنظافة فحسب لذا تستعمله عامة الناس في ممارسة البعض من العادات لها رمزيات كاستعماله ليلة الزفاف أو عند السفر، أو عند اجتياز الامتحانات وجلب الحظ، التطهر من السحر فالاعتقاد السائد للعامة أنه يحمل الخير والبركة والحياة.
- عند غسل الميت يحرصون على عدم تسريب ماء الغسل خارج الغرفة إذ يتم تكليف أحد الأشخاص من العائلة بتجفيف ماء غسل الميت ورميه بعيدا حتى لا يتسنى لأي شخص الحصول عليه تفاديا لاستعمال السحر.
- عند مشط الشعر أو قصّه فالشعر الزائد العالق بالمشط يجب رميه في المياه الجارية، هذا اعتقادا منهم حتى لا يلحق الأذى بصاحبه كالسحر وكذلك بالنسبة للأظافر عند قصها يجب رميها في ماء جاري تفاديا للسحر.
- من بين وصايا الجدات والأمهات أنه يمنع سكب الماء في مجاري البيت بالأخص ابتداء من وقت العصر إلى آخر الليل، فالاعتقاد السائد أن الجن لا يحب أن يرميه الانسان بهذا الزمن بالأخص عندما يكون الماء ساخنا أو مغليا، كما أن النسوة كانت تتفادى غسل الملابس بالصابون (بالطريقة التقليدية) ورميه بالمجاري المائية بزمن وقت العصر إلى آخر الليل هذا تفاديا للمس من الجن والشياطين، أما إذا رمت الماء عاديا بالمجاري المائية (بالزمن المحدد) لا بدّ لها أن تردّد عبارة (بسم الله.... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.... ربي ينجينا منكم.... مُسلمين.... مكتفين...).

• من المعتقدات السائدة والمعروفة جدا يوم تحنية العروس، فمن المتعارف عليه تخصيص يوم خاص لوضع الحناء للعروسة حيث يخصص لها مهمة الحراسة المشددة بتكليف امرأتين إلى ثلاث بالمراقبة والصيانة أثناء تأدية مراسيم الحناء، والحرص الشديد على أن لا تمس أي إمرأه أو الأخذ ولو جزءا صغيرا منها فبقايا عجينة الحناء التي توضع بالصحن تعدّ خطرا على العروسة ومستقبلها، فأحدى النسوة تكلف بمهمة غسل صحن عجينة الحناء بالماء ورميه بحوض الشجرة (تكون خضراء) أو بمكان نباتي مزهر يُفضل أن يكون (نبات النعناع أو الريحان) لريحته العطرة، هذا اعتقادا منهم لتفادي وضع السحر للعروسة وثانيا لتبقى حياتها الزوجية دائما مزهرة ومخصبة.

• زيارة الحمامات الحموية بكثرة اعتقاد سائد وقديم على أن مياهها فيها الكثير من البركة ومفيدة لطهارة الجسم صحيا من الأمراض، حتى أن الشرب منها مفيد بشكل كبير.

3. أسطورة "أنزار إله المطر":

الأساطير هي "قصص تأسيسية يتناقلها أعضاء مجتمع من جيل إلى جيل منذ أقدم العصور، وهكذا فهي تتميز كليا عن سائر النصوص المرتبطة بها ارتباطا وثيقا، تتقاطع فيها سلاسل من الألفاظ و التراكيب المتفرعة عن السرد على غرار التعزيمات الشامانية أو التراتيل الطقوسية، ويشغل الزمن مكانة رئيسية في تعريف الأسطورة ليس فقط لأنه يشرّع من الداخل الخطاب الأسطوري ككلمة بناءة بل أيضا لأنه يلعب دورا حاسما في سيرورة صياغة الأسطورة بصفتها غرضا" (بيار بونت ميشال إيزار 2006، ص 68).

هناك إجماع عام حول الأسطورة على "أنها حكاية تقليدية تلعب الكائنات الماورائية أدوارها الرئيسية" (فراس السواح، 1997، ص8)، كما "تنشأ الأسطورة عن المعتقد الديني وتكون بمثابة امتداد طبيعي له، فهي تعمل على توضيحه، إغناؤه، إذ تثبته في صيغ تساعد على حفظه وعلى تداوله بين الأجيال، كما أنها تزوّده بذلك الجانب الخيالي الذي يربطه إلى العواطف والانفعالات الإنسانية. من ناحية أخرى فإن الأسطورة تعمل على تزويد فكرة الألوهية بألوان وظلال حيّة لأنها ترسم للآلهة صورتها التي يتخيلها الناس وتعطيها أسماءها، صفاتها، ألقابها، وتكتب لها سيرتها الذاتية وتاريخ حياتها، تحدد صلاحيتها وعلاقات بعضها ببعض" (فراس السواح، ص 24).

من هنا تناولت كنموذج عن الأسطورة المعروفة لدى الأمازيغ بشمال إفريقيا "أسطورة أنزار إله المطر" أو كما تسمى بـ "غنجة" (بالغرب الجزائري) سنتعرف على محتوى هذه الأسطورة، عن رمزيتها في المجتمع الذي انتشرت فيه (منطقتي مستغانم وتلمسان).

كنت طفلة أسمع دوما كلام النسوة العجائز عندما لا تعجبهم أحد النسوة أو من البنات العازبات بلباسها فيقلن "يا لطيف هاذي فلانة تقول عليها غنجة ودخلت علينا " فتضحك النسوة، لكنني لم أكن أفهم هذا الكلام فسألت أمي رحمها الله عليها إذ قلت لها:

" أمي لماذا تتردد كلمة "غنجة" دائما على النسوة؟" ضحكت علي وقالت:

"لأنها مشرطة " أي "مبهذلة " بمعنى لباسها غير لائق بها هي بهذا اللباس تشبه "بوخيال" أي الدمية باللبسة ممزقة التي يضعونها في الحقول والبساتين بغية طرد كل الطيور حتى لا تفسد المحاصيل، عندها فهمت فيما بعد أنّ هذه الصفة مرتبطة بـ "غنجة" الدمية المصنوعة بلباس ممزق تستعمل في طلب الاستمطار، لها أسطورة حول ذلك و معروفة في الشمال الإفريقي.

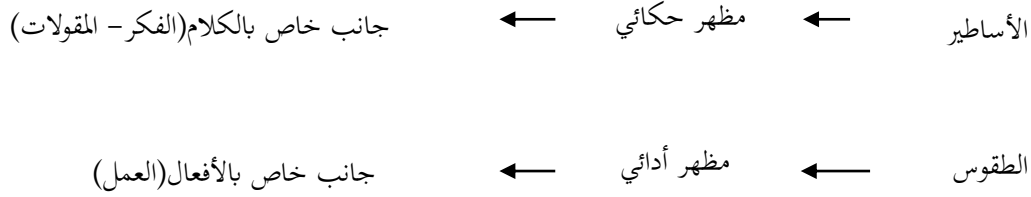
وعليه، تختلف الروايات حول أسطورة "أنزار إله المطر" أو "تاغنجا" من منطقة لأخرى، على أنه يمكن عرض المعنى العام للأسطورة كما يلي:

"إن أسطورة "أنزار" أعطينا المطر والتي تشبه عندنا في الاسلام بصلاة الاستسقاء والتي نؤديها في حالة الجفاف، و في أسطورة "أنزار" هذه تخص منطقة القبائل وهي تشبه أسطورة مماثلة لها حدثت في القصة بالجزائر العاصمة و التي كانت تسمى بأسطورة "بوغنجة" الذي يحمل الملعة الكبيرة، يقال إن قديما كانت الحيوانات تتكلم و الآلهة كانت تظهر للناس، حيث كان هناك إله يدعى "أنزار" إله المياه والأمطار، الذي كان يظهر بعد سقوط المطر على هيئة "قوس قزح"، في يوم من الأيام بعد تهطل الأمطار، وتحسن حالة الطقس، ذهبت فتاة من فتيات القرية، التي كانت فائقة الجمال للاستحمام في أحد الوديان حيث ظهر لها الإله "أنزار" إله المياه والأمطار، طلب بل أصّر على أن تكون رفيقته وزوجته، لكن الفتاة لما سمعت ما قال لها فرت هاربة، لكن الإله "أنزار" عرقلها وطلب منها بل ترجّأها بأن تتبعه إلى السماء والبقاء في مملكته، أين تتقاسم معه سلطته ونزواته، لكن الفتاة رفضت وأبت، لم تقبل طلبه الذي اعتبره الإله إهانة له، حيث صرخ في وجهها بكل قوة وقال بأنه سوف ينتقم، في اليوم الموالي أصبح القرويون على أودية الأنهار وينابيع جافة، حيث هنا يكمن انتقام الإله "أنزار" وهذا هو الموت المكتوب على أهل القرية بما حدث لها مع الإله "أنزار" وطلبوا منها بل ترجّوها أن تقبل عرض هذا الإله بمرافقته إلى مملكته وسلطته، وبعدها عادت الحياة إلى مجاريها الطبيعية حيث انتاب "أنزار" إله المياه والمطر الفرح والسرور". (عبد الرحمان بوزيدة 2005، ص 143-144).

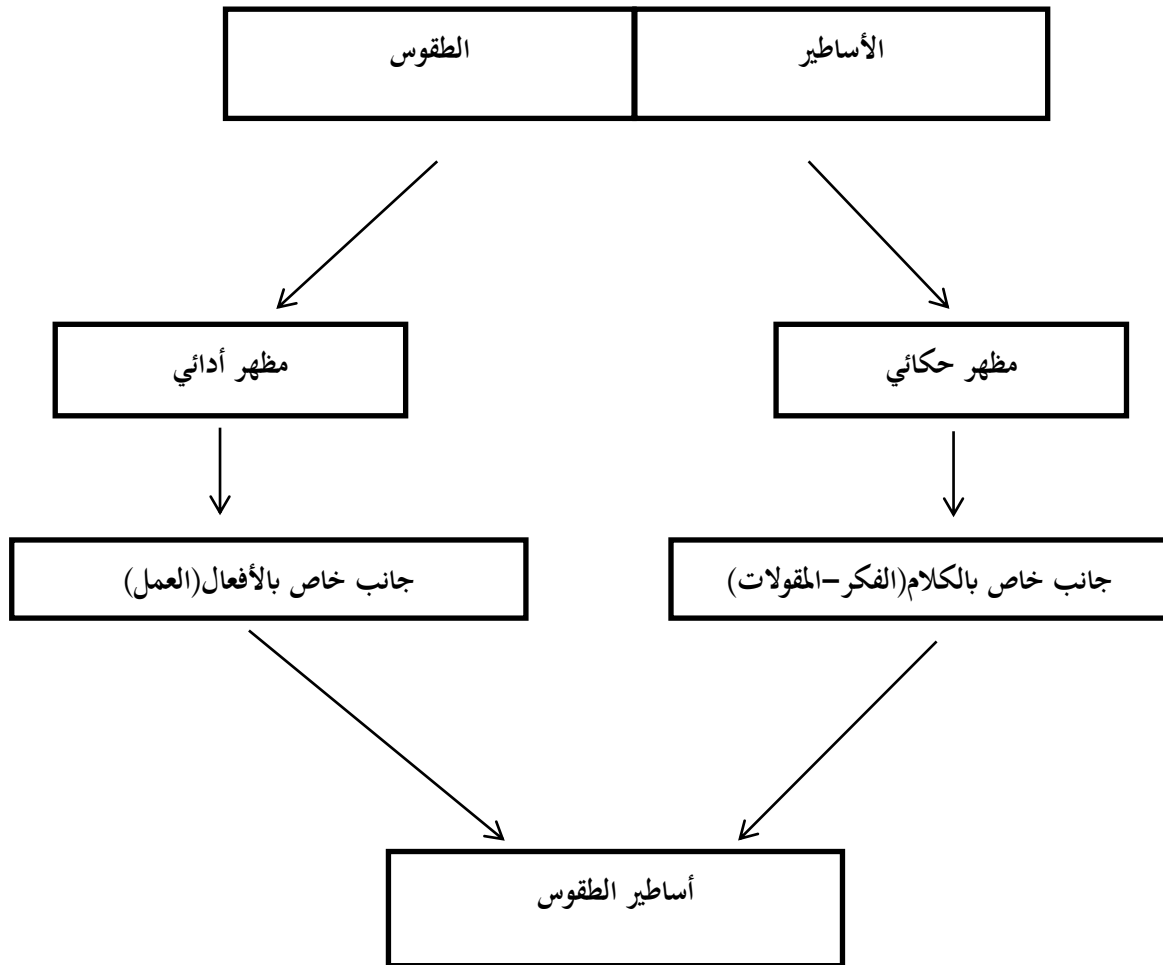
كما كتب لاووست (E.Laoust 1920) عن تاغنجا حيث قال: " تتمثل طقوس (تاسليت أونزار أو تاغنجا في الطواف بمغرفة المسماة بـ"أغنجا" مكسوة بزي عروس "تاسليت" في موكب تشارك فيه النسوة والأطفال بالأهازيج والأدعية، يطوفون عبر الدواوير والقرى والأضرحة، وفي الطريق يتم رش الدمية بالماء من أعالي البيوت من قبل السكان، ويجمعون التبركات والصدقات من عند الأهالي، ليخصصوا "معروفا" أي مآدبة بالقرب من الوادي أو بأعالي الجبل على حسب موقع القرية، وهناك اختلافات في شكل الدمية ولباسها وحتى في تسميتها على حسب المناطق (G .Camps et.S.Chaker)

إذا من هنا يمكننا القول إن "تاغنجا" هي طقس خاص يقوم به مجموعة من الأفراد عبر مناطق يقومون بحركات وتمثيلات وأهازيج، أما أنزار فهو إله المطر في الأسطورة التي تحمل اسمه، "إلا أنه هناك ترابطا بين هذه الأسطورة وهذا الطقس (بين المظهر الحكائي والمظهر الأدائي)، والأساطير تفقد قوتها بفقدان الطقوس المرافقة لها لأن هناك تجاوبا مترتباً بين الطقس والأسطورة، أو أنّ هناك بتعبير آخر تماثلا بينهما، فكأنما الطرف الذي يعني إليه دور الأصيل أو دور الدخيل، فإن الأسطورة والطقس ينتج أحدهما عن الآخر الواحد على صعيد العمل، والأخرى على صعيد المقولات، فالموقف المعتدل إذن هو القول، إن الأساطير والطقوس تتبادل المواقع، حيث تقف الأسطورة على المستوى الفكري وتقف الطقوس على المستوى العلمي" (شهيرة بوخنوف 2012، ص 62).

يمكن أن نلخص الآراء السابقة كالتالي:



ويمكن توضيح هذا أيضا من خلال الشكل التالي: (شهيرة بوخنوف، 2012)



4. طقس "تاغناجا" أو "غنجة" و كيفية القيام:

طقس "تاغناجا" كان منتشرًا ولا زال في مختلف المجتمعات المغاربية. ففي المغرب مثلاً، "لا تزال اليوم "تاغناجا" راسخة في المعتقد الشعبي المغربي وخاصة منه الأمازيغيين في البوادي والقرى لاعتمادهم على الفلاحة في حياتهم المعيشية، في البعض من هذه البوادي يعتمد الناس خاصة منهم النساء إلى الاستغاثة بـ"الطراحة" المستعملة في طرح عجين الخبز في الفرن التقليدي وهي عصا طويلة في أعلى رأسها خشبة مستطيلة ومسطحة يستعملها "طراح الفرن" في إدخال وإخراج الخبز من بيت دفيئة أو تشمير، عادة ما يكون

مستعملا أو "النار" تقوم النسوة بتلبيسها زيّا نسائيا تقليديا باليا ، ويشكّل بمنديل الرأس حتى توشي للناظر بهيئة امرأة و في بعض المناطق يوضع بدل المنديل عروش من النعناع أو بعض الأزهار فيرفعونها في مسيرة تكثر فيها النساء و الأطفال، لتكون وجهتهم مسجد (الدوّار) أي القرية أو أحد الأضرحة مردّدين: "تاغنجا.. تاغنجا... ربّي تصب الشتا"، وأيضا قولهم "السبولة عطشانة غيّاها يا مولانا" ويقومون برش الماء وحتى على بعضهم البعض على طول المسافة من (الدوّار) إلى حيث الضريح وتقام فيه الصدقة وهي ذبيحة يشتركون لذبحها" (محمد أوسوس، 2011).

يستعمل هذا الطقس في القرى الفلاحية في فترة الجفاف طلبا للغيث ، و ما جمعته من معلومات في الجزائر عن هذا الطقس أنه "غنجة" معناها ملقعة عشاء كبيرة تستعمل في طلب الاستمطار حيث يخرجون جماعة كبيرة من الناس إلى أعلى منطقة جبلية مرتفعة ويلبسون ألبسة ممزقة متضرّعين لله وطالبيين الغيث لإنقاذ حقولهم التي هي مصدر عيشهم، وهذه الألبسة البالية حتى يشهد الله على حاجاتهم، وكما أضاف الراوي في قوله عن والدته التي كانت تحكي له كيفية إجراء هذا الطقس، إذ عند عودة الجماعة من أعلى قمة الجبل إلى مضاجعهم في تلك الفترة المسائية أو في يوم الغد تأتي رياح قوية، تتلبّد السماء وتمطر، بعدها استمر هذا الطقس لعدّة قرون إلى اليوم.

أما بالمناطق الغربية للجزائر من غير الأمازيغ، يجتمع الأهالي بالقرى الريفية يعلنون حالة الخطر بموسم الجفاف، يعزمون بإمكانية الشروع في بدء طلب الغيث فيبلغون النسوة بذلك وهنّ بدورهنّ يجتمعن من باقي القرى المجاورة إلى أعلى قرية بالجبل يأتون بملقعة خشبية كبيرة المسماة بـ"مغرف العشا" يزيدون في طولها و يشكّلون بها دمية يلبسونها ويزيّنونها كأنها عروس، يدورون بها كل القرى المجاورة حتى يصلوا إلى أعلى قرية ويردّون:

غنجة ... يا غنجة... رَاهُو طَالُ الرُّجَا
يا ربّي تصبّ الشتا.....
السبولة عطشانة....
غيّاها يا مولانا.....

ويضيفون في كل مرة من هذا القول اسما لولي صالح لكل قرية تشقّعا لطلبهم (مثلا سيدي عبد القادر)

أما باقي النسوة فيحضرن لطبق شعبي أو "معروف" يسمى بـ"روينة لالة حليلة" (أكلة شعبية خاصة بطقس غنجة مصنوعة من القمح بعد طحنه وغربلته، هذه المناسبة كانت منذ القديم لا تخص المناطق الأمازيغية فحسب بل حتى المناطق الريفية بتلمسان "منطقة عين فزة").

في هذا اليوم يشترك أهالي القرى بذبح الشاه، تطبخ وتوزّع على الجميع بنية المعروف أي الصدقة، كما تأخذ النسوة قطعة من القماش مخصصة لعجين الخبز قبل وضعه في الفرن التقليدية، تجمع هذه القطعة ويصنع بها كرة يلعبون بها في الساحة ككرة المضرب بالملقعة الخشبية الكبيرة، بعدها تأخذها اثنان من النسوة أو أحد الرجال إلى حافة النهر بالقرب من هذه القرى يثبت فوقها حجرتين لمنع انزلاقها.

في هذه الأثناء يكون الرجال منشغلين بالصلاة في الجامع يطلبون الغيث ثم يكتب الإمام على لوح خشبي خاص بتعليم وتحفيظ القرآن آيات قرآنية وتعلّق على شجرة بالجامع، في تلك العشية، تضيف الراوية، يرسل الله أمطارا قوية يستبشر بها الأهالي و يفرحون بها، أما تلك الكرة الموضوعة على حافة النهر تجلبها الأمطار في

النهر لتأخذها ولا أحد يعرف أثرها ويتكرر هذا الطقس بممارسته في كل مرة يحل الجفاف بموسم الحرث والبذر.

أما في إحدى قرى "مستغانم" دوار النعائمة" بالجهة الغربية من الجزائر، فنفس الشيء يحضره الأهالي بهذه المناسبة إذ يضعون دمية من القصب تكون كبيرة الحجم يلبسونها وكأنها "بوخيال" أي رجل البستان المستعار لتخويف وطرده الطيور التي تفسد الحقول، وتكون ثياب الدمية ممزقة وتدور النسوة بكافة الدشور والقرى مرددات:

"يا غنجة" ... طال رجانا غيئنا يا مولانا..... السبولة عطشانة.... غيئنا يا مولانا"، كما تحضر النسوة "طبق الروينة" ويذبحون الشاه، يقدمون "المعروف"، يأكل كل الحضور بالقرية والقرى المجاورة.

5. حول رمزية "غنجة":

"كانت حاجة الانسان منذ القديم إلى الأسطورة، حاجته إلى الفهم، كفهم الطبيعة من حوله وفهم ضعفه من جهة ثانية، بالإضافة إلى حاجته للقوة التي يستمدّها من القوى الغيبية لتجاوز ضعفه ومحاولة السيطرة على العالم بعد التمكن من تفسير ظواهره من جهة ثالثة.

ابتكر الانسان وسائل جديدة لإعادة خلق الطبيعة بالصيد في العصر الباليثي، وبالزراعة في العصر النيوليثي محيطين واقعهم بمجموعة من التفسيرات وأشكال الخلق فقبل عشر آلاف سنة تقريبا اخترع البشر الزراعة، ولم يعد الصيد طعامهم الرئيسي لاكتشافهم الواضح أن الأرض مصدر إنماء لا ينفذ للطعام، لم يكن هناك تطورات تذكر للجنس البشري عدا الثورة الزراعية، ويمكن تلمس خشية وسرور ورعب المزارعين الرواد في الميثولوجيا التي ابتكروها للتكيف مع ظروف حياتهم الجديدة والتي حفظت أجزاء منها في ميثولوجيا الثقافات اللاحقة، هكذا تكون دور الحياة في إنتاج الأساطير ودور الأساطير في فهم الحياة حتى تنتقي البداية الأولى للأسطورة وكأنها ولدت مع الانسان الأول لتساعده على فهم الحياة من حوله، ومن خلال هذا فالأسطورة مجال لتزاوج الدنيوي بالديني من جهة ومجال لفهم الذات والطبيعة من جهة ثانية". (شبير محمد، دراسات وأبحاث في الثقافة الأمازيغية 2011).

بالنسبة لـ "لاووست" فهو " يؤكد أن "تاغنجا" قد حظيت بشعبية كبيرة كآلهة شمال إفريقيا، كما يستخلص من تحليل الوقائع أنها مازالت تحظى بهذا التقدير في الطقوس، ويفسر "لاووست" احتفاظ الأمازيغ بذكرى "تاغنجا" من دون بقية الألوهيات القديمة بكون الظروف المناخية وعدم انتظام الأمطار يعرض المحصول للخطر ويستدعي اللجوء إلى الطقوس والألوهيات، ورغم أن الإسلام يفرض نفسه كواقعة كبرى وأساسية في الثقافة المغاربية إلا أن انخراط الأمازيغ فيه يتخذ أحيانا تلوينات تصدر عن ميثولوجيا قديمة تستمد جذورها من رصيد متوسطي عريق (محمد أوسوس 2011). ويمكننا هنا أن نعرض لبعض الجوانب الرمزية في طقس تاغنجا:

فـ "تاغنجا" تلبس وتزيّن مثل العروس بل تأخذ دور الفتاة العروس التي طلب الإله "أنزار" حسب نص الأسطورة الزواج بها أما إذا رفضت فسيعمّ الجفاف.

أما "المغرفة" في طقوس الاستمطار فهي أداة مطبخية وعائية بطبيعتها لديها صلة جوهريّة بالسوائل، فهي تستعمل لاغتراف الماء أو المرق أو لسقي الكسكس أو غيرها. أما رفع الملعقة الخشبية المحدّبة فهو رمز للعقم لذا الغرض من هذا هو طلب الخصوبة أي طلب نزول المطر.

"أنزار" هو إله المطر الذي يمثل السماء و "تاغنجا" تمثل الأرض أي الخصوبة، وهي علاقة تكاملية، "تاغنجا" الأرض تمثل رحم الأم والخصوبة معا، بإمكاننا أيضا تقديم رمزية الماء، فالماء في المجتمعات المغاربية يرمز إلى الحياة كما يرمز إلى الطهارة والعفة تعود أهمية الماء إلى ضرورته من أجل الاستمرارية (تراث ودراسات تراثية، فاطمة الزهراء الديباني).

كما يحمل أبعادا أخرى مختلفة بما تفعله مجتمعات مغاربية أخرى في عاشوراء برش الماء الذي يأتون به من العيون التي يستحمون بها، وهذا اعتقادا منهم أنه قادم من بئر زمزم في مكة المكرمة. و في طقس "تاغنجا" هناك تزواج بين الثقافة الأمازيغية و الثقافة الإسلامية، كما يبدو جليا خروج الموكب المركب من مجموعة

النسوة مع الأطفال باعتقادهم أن في هذا الطقس تضرعا للمولى طلبا للشفاعة بالنظر لبراءة هؤلاء الأطفال، كما أن عملية جمع التبرعات والصدقات بنية تقديم "معروف" لها طابع ديني، كما يتجلى الطابع الديني بالاعتماد على صلاة الاستسقاء بصلاة الرجال في المساجد طلبا للغيث، هذا لإنقاذ المحاصيل التي تعتمد عليها المجتمعات الريفية في عيشها فالزراعة لها ثقافتها في خدمة الأرض مواصلة في الحياة، كما يمكننا أن نلاحظ الاحتكاك بين المجتمعات الأمازيغية والعربية خصوصا في الشمال الأفريقي باعتمادها على استحضر طقس "تاغنجا" لإنقاذ المحاصيل.

6. خاتمة:

الأكثرية من عامة الناس ترى أن الماء يرتبط بالطهارة و النقاء و هذا ما يعقب بعد تساقط الأمطار بأنها مُطهرة و منظفة و بالتالي تبعد الأمراض والأسقام، كذلك ارتبطت رمزية الماء ودلالته بالحياة والخصب والرزق والبركة، كثيرة هي المعتقدات الشعبية والطقوس المرتبطة بالماء كونها أفكارا قديمة توارثها الأفراد وبقيت راسخة في الذاكرة الجمعية.

عرفت "غنجة" كمناسبة لطلب الاستمطار عبر مختلف المناطق المغاربية حتى وإن اختلفت طرق الطقس بشكل طفيف، إلا أن رمزيتها واحدة تتكرر كلما كان المجتمع بحاجة إلى المطر نظرا للجفاف الذي يضر بالمحاصيل، ولأن الانتاج الفلاحي هو الأساس في معيشتهم، فكان الأهالي عبر المناطق الريفية يمارسون هذا الطقس دون فهم معناه ولا حتى معرفة مصدره، فقط يقولون بأن هذا الفعل موجود من زمن بعيد، هو ممارسة لأجدادهم يواصلون القيام بها. ولقد انتشرت ممارسة هذا الطقس حتى عبر المناطق غير الأمازيغية، فكان استحضره بنفس الطريقة ولكن فقط بإضافة صلاة الاستسقاء في المساجد حيث يصلبها الرجال، أما النسوة والأطفال فيخرجون إلى البادية لطلب المطر ب "غنجة".

بقي المعتقد فترة طويلة في الأذهان إلى أن نقص و اضمحلت "غنجة" في طلب الاستسقاء ببعض من المناطق الجزائرية، خاصة منها الغربية، لعدة أسباب ظهرت في الآونة الأخيرة والتي منها نذكر: الظروف الغير المستقرة التي عرفت الجزائر في فترة التسعينات، وهذا ما جعل الأهالي يخافون من الخروج للقيام بهذا الطقس، وثانيا التغيير الذي عرفه أهالي المجتمعات الريفية من الاعتماد على الطابع الفلاحي في قوتهم ومعيشتهم إلى اعتمادهم على السوق وكل ما هو متوفر في المحلات كشراء الخبز الجاهز وبالتالي عدم التكلفة في زرع القمح، حصده، طحنه، غربلته وغيرها من الأعمال الفلاحية الأخرى، بالإضافة إلى تغيير الأجيال التي استبدلت العمل الفلاحي بوظائف إدارية ومؤسسية. والعامل الثالث الذي يمكن ذكره أثر التكنولوجيات الحديثة التي أفقدت الكثير من الاهتمامات السابقة كالاحتفالات والممارسات الشعبية وما تبقى منها إلا ترسيخ لها كأن

تبقى مجرد حكاية أو رواية لها تحكيها الجدات عن ماض غابر تجسّد فيه هذا الطقس، وبقاء لفظ "غنجة" يعبر عن وصف هذه الحالة ومظهرها يتجسّد في لعبة تقليدية للبنات الصغار، كما أنه يستمر اليوم فقط ببروز بعض الجمعيات التي تعيد تمثيله وممارسته من باب الحفاظ على الذاكرة الجماعية من خلال هذا الموروث اللامادي كما هو الحال بالنسبة للكرنفال الخاص بالسنة الجديدة عند الأمازيغ الذي يتماشى مع احتفالية العام الجديد.

7. قائمة المراجع:

- القرآن الكريم
- فراس السّوّاح (1997)، الأسطورة والمعنى، دراسة في الميثولوجيا والديانات المشرقية، دمشق، ط1، دار علاء الدين.
- عبد الرحمان بوزيدة (2005)، قاموس الأساطير الجزائرية، منشورات CRASC البرنامج الوطني للبحث، السكان والمجتمع، الجزائر، طباعة المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.
- بيار بونت، ميتشال إيزار (2006)، قاموس الأنثروبولوجيا و الإثنولوجيا، ترجمة وإشراف مصباح الصمد، بيروت، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع "مجد".
- محمد أوسوس (2011)، "طقوس الاستمطار الأمازيغية "البربرية" و أساطيرها بشمال إفريقيا"، مجلة الثقافة الشعبية، العدد14، منشورات الثقافة الشعبية للدراسات و النشر.
- فاطمة رزايقية و بن عمر بوخضرة، (2019) الماء في المتخيل الشعبي الجزائري " دراسة رمزية في منطقة حمام النبائل بقالمة، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد08، صفحات 130-145 .
- زهرة ثابت، (2021)، رمزية الماء والنار في الأساطير والأديان، مجلة نقد وتنوير، العدد الثامن –السنة الثانية صفحات 304-321.
- شهيرة بوخوف (2012)، أساطير وطقوس الاستصقاء واستقبال الربيع في منطقة خراطة (بجاية)، مقاربة إثنولوجية، مذكرة ماجستير، قسم أدب شعبي، كلية الآداب، جامعة تيزي وزو، الجزائر.

- E.Laoust(1920), Mots et choses berbère-notes de linguistique et d'ethnographie dialectes du Maroc, édition- Augustin-Challamel, librairie maritime et coloniale, Paris France.
- Raymont BOUDON et autres(2012), Dictionnaire de la Sociologie, Impimé par Unigraf.S.L, Madrid.
- G .Camps et S.Chaker, « Anzar », in Encyclopédie berbère
<http://encyclopedieberbere.revues.org/2554>
- Autres sites:

شبير محمد، دراسات و أبحاث في الثقافة الأمازيغية، (آلة التضرع لإله الغيث)، 2011 زيارة الموقع بتاريخ 2015 /10/21 <http://amazighsearching.blogspot.com/p/blog-page.htm>

فاطمة الزهراء الديباني، تراث و دراسات تراثية، (الماء بين الخرافة و الكرامة من خلال بعض النصوص التاريخية بالمغرب) 2015، زيارة الموقع بتاريخ 2015/11/10
<http://www.anfasse.org>

أنظر كذلك حول طقوس الاستمطار الأمازيغية من هذا الموقع، زيارته بتاريخ 2015/10/21
<http://forums.roro44.net/475633.html>